[redacted]

رواية

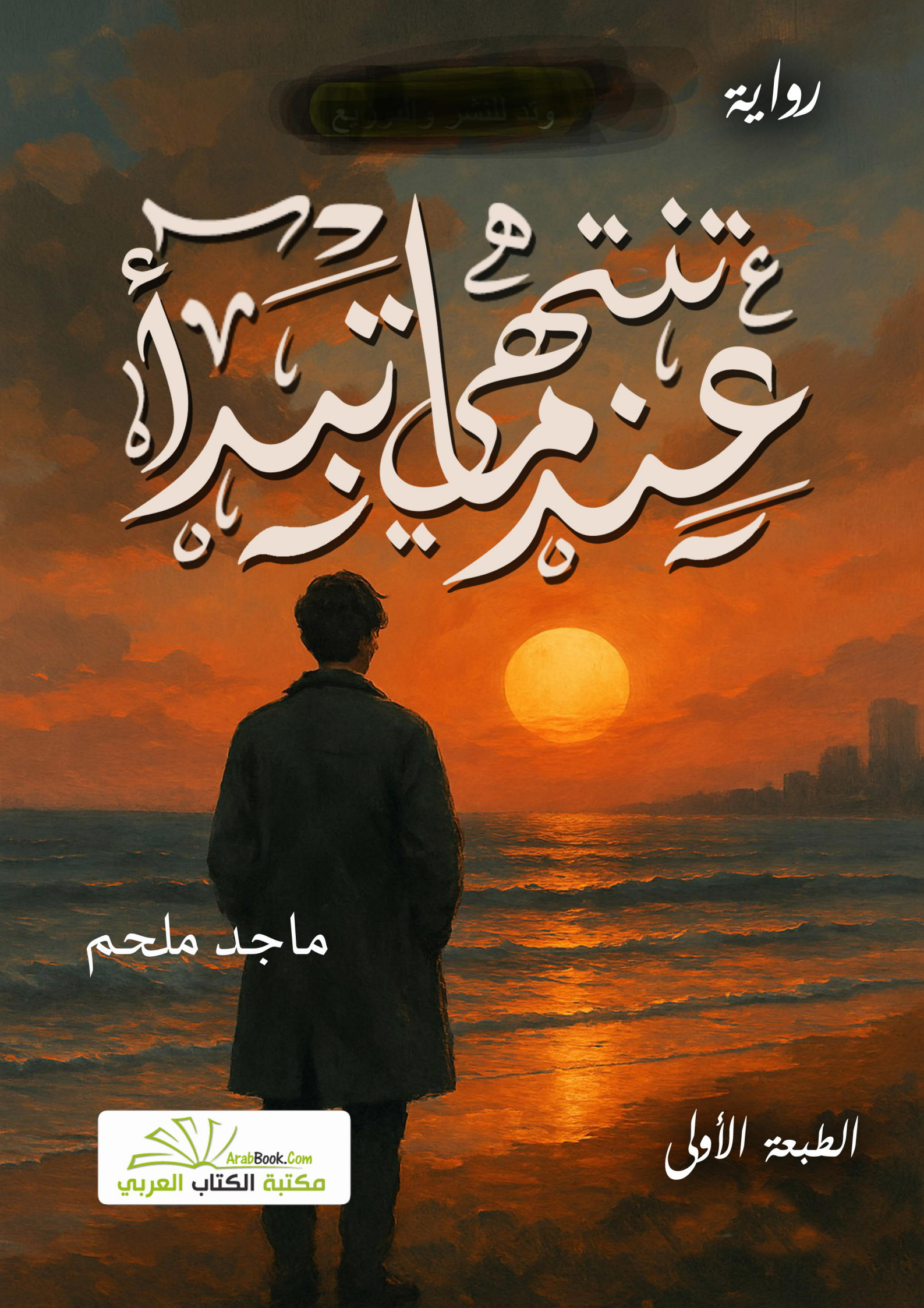

عندما تنتهي أبدأ

ماجد ملحم

الطبعة الأولى

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

تنتهي عندما تبدأ

رواية

ماجد ملحم

الطبعة الأولى
2025م

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

ملحم، ماجد

عندما تنتهي تبدأ، رواية

ط 1 - 2025م

نسخة إليكترونية

الطبعة الأولى

2025م

Majed Mulhem

When It Ends, You Begin, Novel

st Edition – 20251

Electronic Version

First Printing

2025

جميع الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تُعبر فقط عن آراء المؤلف،
ولا تُعبر بالضرورة عن آراء مكتبة الكتاب العربي.
جميع حقوق النشر والتصميم محفوظة، ولا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

وسائل التواصل مع المكتبة:
البريد الالكتروني: info@arabbook.com
موقع المكتبة: https://www.arabbook.com

All opinions and ideas expressed in this book reflect solely the views of the author and do not necessarily represent the views of ArabBook.com.
All rights to publishing and design are reserved. Reproduction of this book, in whole or in part, or storing it in any retrieval system, or transmitting it in any form or by any means, is strictly prohibited without prior permission from the publisher.

Email: info@arabbook.com
https://www.arabbook.com

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

1447هـ - 2025م

كانت (الأخوة كارامازوف) آخر ما قرأته في تلك المرحلة. كنتُ شابًا بعد، أحمل في قلبي شغفًا طريًا بالحكايات، أحلم أن أكون بطل رواية ما، أن يقبض عليّ قلم دوستويفسكي، أن يزرعني بين سطور عاصفة، في مجازٍ عن الإنسان والصراع والإيمان والخطيئة. كان العمر آنذاك في باكر إشراقه، مثل ورقة لم يُكتب عليها بعد سوى أول سطر من قصيدة طويلة. لم تكن الخيبات قد نالت منا بعد، كنا نضحك دون أن نفكر كثيرًا بما ينتظرنا، ولم نكن ندرك أن الضحك نفسه قد يصبح يومًا ما ترفًا من زمن آخر.

كانت المنطقة تغلي.

ولدتُ وهي تغلي.

شببتُ وهي تغلي.

هاجرتُ، وتركتها خلفي، ولا تزال تغلي.

ثمة لعنة مضمرة تستوطن هذه البقعة من الأرض، لعنة لا تهدأ، لا تتعب، لا تتراجع. التاريخ هنا ليس شيئًا نقرؤه، بل شيئًا نعيشه، يُعاد علينا بمسميات جديدة، وجوه مختلفة، لكن الجرح ذاته.

لا تعرفون شعور أن يعيش الإنسان في مكان يمكن أن يتبدل فيه كل شيء في لحظة، لحظة واحدة تكفي لتتحول الحياة إلى رماد، والشارع إلى خط تماس، والصمت إلى نبوءة سوداء.

نحن أبناء اللحظة المهددة، لا نُفكر بالغد كما يُفكر به الآخرون، لأن الغد لدينا ليس وعدًا بل احتمال. احتمال أن نستيقظ أو لا، أن نبقى أو لا، أن يكون لنا وطن، أو لا. كل شيء معلّق بخيط رفيع، وكل خيط معلّق في الريح.

في مثل هذه الأمكنة، لا تكبر فقط، بل تتآكل وأنت تنمو، تتهدم وأنت تبني. تطاردك الحكايات من تحت الركام، من خلف الأزقة، من وجوه الأمهات في الأبواب، من نظرات الأطفال الذين يكبرون أسرع مما يجب.

أكتب الآن، لا لأروي، بل لأتذكّر أني كنت هناك، أني كنت شابًا يؤمن بالكتب، ويظن أن الأدب قد ينقذ الروح من الجنون. أكتب كي لا تبتلعني الذاكرة، ولا تذوب ملامحي بين الأوطان التي نغادرها، وبين المنافي التي لا تشبهنا.

ربما كل ما أردت قوله:

إننا لا نُغادر أماكننا حقًا، بل نحملها كندبةٍ خفية تحت جلدنا،

وحين نقرأ دوستويفسكي اليوم، نكتشف أن الإنسان لا يتغير كثيرًا،

لكن الأمكنة...

هي التي تفقد قدرتها على الغفران

وهنا، لن أروي مجرى حياتي كما يُروى في السير، بترتيب زمني ممل، أو على طريقة الحكايات التي تبدأ بـ"كان يا ما كان".

لا.

سأروي مقتطفات، شذرات، تشظيات... مجموعها ليس حياتي كما جرت، بل هوى حياتي، كما عشته داخلي، كما سكنني ورفض أن يهدأ.

قررت أن أكتب — أخيرًا.

لا بد أن زحام ما قرأته في حياتي قد دفعني إلى هذا القرار.

كل تلك الحكايات التي التهمتها، كل الأبطال الذين رافقوني، كل النهايات التي أبكتني أو أدهشتني — دفعتني أخيرًا للتمرد على الصمت.

لم أعد أريد أن أقرأ فقط.

أريد أن أخلق.

أريد أن أصنع الأبطال لا أن أتعاطف معهم فقط.

أريد أن أخترع البداية، أن أختار اللحظة التي يظهر فيها بطل ما في الزاوية، أو تسقط فيها قذيفة على بيت، أو تغلق فيها امرأة الستائر دون وداع.

أريد أن أرسم النهاية بيدي، لا أن أُترك لها كقَدر.

أن أتحكم بكل شيء، بكل تفصيل، بكل رعشة، بكل موتٍ وولادة.

أريد — وللمرة الأولى — أن أكون إله الرواية.

الخالق، المتحكّم، الناظم للفوضى.

لست مدفوعًا برغبة في السيطرة فقط، بل برغبة أعمق: أن أخلق عالمًا يستطيع أن يشفى، أن ينتصر، أن يحب، أن يبكي، أن يخطئ... لكن أن يختار.

عالمٌ لا يحترق لمجرد أنه ولد في المكان الخطأ.

في عالمي، سأعيد توزيع الألم.

لن أتركه يسكن قلب طفل.

سأجعل الحب ممكنًا حتى في الأزمنة الرديئة.

سأمنح المدن فرصة ثانية، والمنافي أبوابًا مفتوحة للعودة.

ولن تكون الرواية عني — لكنها ستكون مني.

من ندبي، من أحلامي المؤجلة، من خساراتي التي حفظتها كما يحفظ العاشق ملامح الغائبين.

أكتب الآن لا كمن يهرب من الواقع، بل كمن يواجهه بأداته الوحيدة: الحبر.

كمن يصنع من الكلمات خندقًا أخيرًا ضد النسيان.

كمن لا يريد النجاة، بل يريد أن يقول:

"كنت هنا، وشاهدت كل شيء.

والآن، سأحكيه...

لكن كما أريد أنا.

فتحتُ الدفتر القديم. ورقٌ أصفر كجلدٍ أصابه الزمن، وحبر قد لا يصمد كثيرًا، لكنه الآن كافٍ ليبدأ الخلق.

لم أضع عنوانًا بعد.

لكني عرفت البطل منذ اللحظة الأولى.

لم أسمّه... لكنه كان يشبهني.

كان وحيدًا، يحمل في جيبه مفاتيح بيت لم يعد له وجود، وصورًا ممزقة لوجوه لم يعد يعرف أين صارت.

قررت أن أبدأ من منتصفه، لا من طفولته. لا شيء في الطفولة سوى ضجيج القصف، وخوف الأمهات، وغياب الآباء خلف الجبهات أو خلف الأسوار.

بدأت من لحظة عادية تمامًا — كان جالسًا على مقعد خشبي، يشرب قهوة باردة في مقهى لا أحد يعرف اسمه.

لكن خلف هذه العادية كان كل شيء موشك على الانهيار.

لم أرد أن أكتب عن الحرب، لكن الحرب زحفت إلى الصفحة كأنها تسكن الحروف.

لم أرد أن أكتب عن الغربة، لكنها تشبثت بنهاية كل جملة.

أردت فقط أن أكتب إنسانًا،

يمشي، يخطئ، يحب، يتذكر، ينسى، ويقف على الحافة.

في كل مرة أصف مشهده، أنظر في داخلي كأنني أصف مرآتي.

لم أكن أكتب هو، كنت أكتب أنا... لكن كما كنتُ أريد أن أكون.

في الرواية، منحته ما لم أمنحه لنفسي: فرصة للهرب قبل فوات الأوان، حبًا صادقًا لم يلوثه الخوف، ومدينة تعود إليه يومًا دون أن تكون قد التهمت أبناءها.

ولم أكن وحدي من يتغير أثناء الكتابة.

الرواية نفسها بدأت تتحول، كأنها حية، كأنها تقاومني.

تريد شيئًا آخر، نهاية أخرى، مصيرًا لم أضعه في الخطة.

وهنا فهمت.

أن تكون "إله الرواية" لا يعني السيطرة الكاملة.

يعني أن تمنحها الحياة، ثم تراقبها تتنفس وحدها،

تختار سقوطها وصعودها،

وتدعك تتأملها كمن يشاهد نجاةً ما... حتى لو لم تكن

نجاتك

كنت أكتب، وأفكر بخالد طوبال.

ذلك البطل المكسور في ذاكرة الجسد،

الرسّام الذي هزمته الحرب أكثر من العدو،

الذي عاش نصفه في الوطن ونصفه في المنفى، ونصفه الثالث في امرأة لم تكن له.

كانت أحلام ذكية في وصفه، حد الألم.

لكنني... كنت أريده أن يثور.

أن يصرخ.

أن لا يكون ضحية فقط.

لو كنت أحلام، لجعلته يقتل زياد،

لا لأنه غريمه، بل لأنه تمثّل الخيانة كلها:

خيانة الوطن، وخيانة الذاكرة، وخيانة المرأة.

قلت هذا مرة لصديقتي "رُبى"،

وكنت في منتصف الفصل الثاني من روايتي.

قالت وهي تنفث دخان سيجارتها وتضحك:

– "أنت تريد بطلاً يثأر عنك، مش عن خالد."

– "ربما. أو ربما أريد نهاية لا تسحقني وأنا أكتبها."

– "بس يا صاحبي... زياد في الحقيقة مش شخص، هو فكرة. كيف تقتل فكرة؟"

– "أكتُبها. وأغيّر شكلها. وأدفنها بين السطور."

– "بس الرواية مش مقبرة. الرواية حياة."

صمتُّ.

كانت رُبى تقول أشياء تُشبهني أكثر مما أعترف به.

كانت مرآتي، لكن من زجاج مكسور.

كل مرة تحدثنا فيها، خرجتُ منها كما لو أنني واجهت نفسي، وأدرت ظهري لها.

قلت لها بعد صمت طويل:

– "طيب لو كنتِ مكان أحلام... شو كنتِ عملتِ بخالد؟"

– "كنت خليته يرسم وجهها... ويحرق اللوحة."

– "بس هيك نهاية شاعرية، مش دموية."

– "مو كل نهاية بتحتاج دم. بعض النهايات بدها ندم."

أخذت رشفة من قهوتها، ونظرت بعيدًا كأنها تحدث أحدًا غيري.

خالد لم يخرج من رأسي تلك الليلة.

ولم أخرج أنا من الرواية.

أصبحت هي ملاذي الوحيد من واقعي،

وصارت شخصياتي تسكنني كما يسكن الغريب مدينة لا تعرف اسمه.

قررت إدخال شخصية اسمها "نديم".

شاب يشبه زياد... لكنه ليس زياد.

كان أنيقًا، ساخرًا، يعيش بلا ذاكرة، بلا تأنيب ضمير.

رجل يعرف كيف يربح كل شيء دون أن يشعر بثقل الخسارة.

ثم كتبت شخصية "ليان".

امرأة لا تشبه "حياة" التي أحبها خالد، لكنها تحترق مثلها.

كانت تحب بصمت، تقرأ كثيرًا، وتكتب رسائل لا تُرسلها.

ورغم أنها لم تكن البطلة، إلا أن كل شيء بدأ يدور حولها.

قال نديم لليان في أحد الفصول:

– "أنتِ بتدوري على واحد ينقذك، مش تحبيه."

فأجابت دون أن تلتفت:

– "وأنتَ بتدور على واحدة تنسى في حضنها إنك خاين."

أغلقت الصفحة.

جلست طويلًا أنظر في العدم.

لم أعد أكتب فقط.

كنت أفرغ رأسي من السم.

أخلق من شتاتي أشخاصًا، وأمنحهم خيارات لم تكن لي

———

كنت أكتب فصلاً جديدًا...

وكان نديم يتمادى.

صار أذكى مما رسمته له.

أكثر حضورًا، أكثر غموضًا، وأكثر وقاحة.

لم يكن يشبه زياد فقط،

كان هو زياد،

لكن بنسخة متطورة،

نسخة تقرأك قبل أن تكتبها،

تدخلك من أضعف فجوة في منطقك، وتربكك بابتسامة شبه ودودة، شبه قاتلة.

في إحدى الليالي، كنت أكتب مشهدًا عاديًا،

ثم حدث ما لم أخطط له:

دخل نديم على البطل – على شبيهي – دون إذن،

جلس أمامه في المقهى ذاته الذي بدأت فيه الرواية،

وأشعل سيجارته كما لو أنه يعرف أن هذه اللحظة ستأتي.

قال نديم وهو يراقب البطل ببرود:

– "كم نسخة منّي كتبت؟"

– "ما كنت أكتبك. كنت أكتب خيالك."

– "بل كنت تكتب خوفك مني."

– "أنت ما كنت موجود حتى."

– "بل كنت موجودًا في كل رجل خذلته، وكل مدينة هربت منها."

صمت البطل.

نظر إليه طويلًا، وكأن بينهما حياة كاملة لم تُعش.

قال:

– "أنتَ زياد."

– "زياد مجرد اسم. أنا الشيء الذي لم تواجهه يومًا."

– "كنتَ خائنًا."

– "ربما. لكنني على الأقل اخترت. أما أنت، فظللت تكتب لأنك لم تجرؤ على الفعل."

وقف البطل.

الكرسي صرخ تحت جسده،

كأن الرواية نفسها تحتجّ على هذه اللحظة.

قال:

– "أنا كتبت لأُنقذ نفسي."

– "بل كتبت لأنك أردت أن تتحكم بي. أردتني أداة، وأنا صرت مرآة."

اقترب نديم، نظر إليه بعينٍ لم تَعُد تشبه الكلمة المكتوبة.

قال بهدوء:

– "اقتلني."

– "ماذا؟"

– "اقتلني. أنت من قلت: لو كنت أحلام، لجعلت خالد يقتل زياد. الآن، أنت الكاتب. خذ فرصتك."

رفع البطل عينيه نحوه.

كان المشهد كله متجمّدًا — الزبائن، الشارع، الضوء الخافت، صفحة الورق المفتوحة.

قال:

– "لا. لن أقتلك."

– "لأنك تخاف؟"

– "لأنك لم تَعُد تستحق حتى الموت."

ثم عاد وجلس.

أخذ القلم من جديد.

كتب جملة واحدة:

"في النهاية، لم يقتله ...بل كتبه، وتركه عارياً أمام المعنى.

كنت كل ليلة أكتب.

أهرب إلى أوراقي كما يهرب الغريق إلى قشة،

ثم أعود إلى منزلي،

وأحاول أن أنام.

لكن لم يكن هناك نوم.

كان هناك صراع.

صراع في رأسي،

بين ما أكتبه وما أعيشه،

بين شخصياتي التي تملك مصيرها على الورق،

وبيننا، نحن، العالقين في واقع لا كاتب له.

كنت أغمض عيني،

فأراهم.

رجل مقطوع الرأس على الرصيف،

طفلة تبكي دون صوت تحت الركام،

أم تحمل كفن ابنها وتمشي كأنها تحمل الهواء.

الحرب السورية لم تكن ترفاً بعيداً عني،

كانت تدق أبواب الجميع،

بلا استئذان، بلا رحمة، بلا خجل.

كل شيء أصبح قابلاً للكسر: البيوت، الوجوه، الأسماء، الخرائط.

كل شيء أصبح مؤقتاً: الحياة، الولادة، حتى القبور.

كنت أكتب لأمنح شخصياتي نهاية.

لكن في الواقع، لم نكن نملك ترف "النهاية".

كنا نُقتل ونحن نأكل، نُعتقل ونحن نحلم، نُنسى ونحن نصرخ.

في الليل، كان رأسي معركة،

جثث الكلمات تتكدس داخلي،

نديم يتحول إلى ظل،

ليان تبكي بين السطور،

والبطل – شبيهي – يحاول أن يفهم أي جانب يقف فيه من العالم.

أحيانًا، كنت أريد أن أوقف كل شيء.

أن أمزق الدفتر، أن أقول: لا فائدة.

لكنني كنت أعود في الليلة التالية،

كأنني مدمن على النجاة المؤجلة،

على حلم صغير بأن الحكاية، ولو على الورق، قد تُنقذ أحدهم.

في الليلة التالية، كنت أكتب جملة جديدة على الهامش:

"إذا لم نقدر أن نمنع المجازر، فعلى الأقل نرويها ...بوضوح، بمرارة، وبلا تجميل".

وفي تلك الليالي، كنت أشعر بشيء يشبه الخوف...

ليس من الموت، بل من النجاة.

لأن النجاة تعني أنك ستبقى وحدك لتكتب عن الجميع

كانت غيداء تمسك سيكارتها كما لو أنها تدخن ذاكرةً لا دخانًا.

امرأة في بداية الثلاثينات، لكن الزمن معها لم يكن يُقاس بالعمر،

بل بالصمت، وبالعيون التي تعرف ما لا يُقال.

لم تكن صارخة الجمال، لكنها جميلة بطريقة تُربك.

كأنك تشك في إدراكك، ثم تقف مطولًا أمام حضورها لتتأكد أنك حيّ.

كنت أسير عصر تلك الليلة باتجاه المقهى المعتاد.

أبحث عن قهوة، أو ربما عن عزلة مؤقتة،

عن لحظة لا يُلاحقني فيها شيء.

وحين رأيتها، لم أتردد.

لم أقل لنفسي "من هذه؟"

قلت: هي.

هي التي ستُغيّر النغمة.

هي التي ستقلب الرواية دون استئذان،

هي التي، دون أن تدري، ستعيد ترتيب الفوضى داخلي.

اقتربت منها، وعلى لساني دعابة ثقيلة بالنية:

– "عازمك على فنجان قهوة... أو إنتِ تعزميني؟"

رفعت إصبعين فقط، بإيماءة خفيفة لا تخلو من سخرية أنثى تعرف وزن حضورها.

لم تبتسم، ولم تندهش.

فقط قالت بعينيها: تفضل.

وهكذا بدأت الحكاية.

———

جلسنا.

الصمت بيننا لم يكن فراغًا، بل لغة.

كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات لا نملك فيها أسماء.

كأننا التقينا في حياة سابقة ولم نكملها.

قالت بعد دقائق وهي تنفث دخانها للأعلى، كأنها تكتب به:

– "بتكتب، مو؟"

– "واضحة لهالدرجة؟"

– "الكاتب واضح... بيكون جسده هون، وروحه هناك... في مكان لسا عم ينكتب."

قلت:

– "أنا بكتب رواية عن رجل يشبهني... وعن بلاد ضاعت، وامرأة ما وصلت."

قالت:

– "غريب... كلنا عم نكتب الرواية ذاتها، بس بأقلام مختلفة."

نظرتُ إليها طويلًا.

كان في صوتها نبرة تعب بلا شكوى.

وفي عينيها شيء يشبه الندم، لكن بلا ذنب.

قالت لي:

– "اسمي غيداء."

أجبت دون تفكير:

– "ما في داعي تقولي. كنت كاتب اسمك جواتي من أول ما شفتك."

ضحكت.

ضحكتها لم تكن خفيفة، كانت كمن يضحك رغمًا عنها... كمن فقد القدرة على التصديق لكنه لا يملك إلا أن يضحك.

منذ ذلك اليوم، صارت غيداء تظهر في روايتي.

لكن ليس كما هي.

كنت أُعيد كتابتها كما أُريدها أن تكون: أقل وجعًا، أقل خوفًا،

امرأة تستطيع أن تحب دون أن تشعر بأنها تحت القصف.

سميتها "سماء" في الرواية،

لأنها لم تكن أرضًا مشيت عليها،

بل فضاءً تنفست فيه لوهلة،

قبل أن أعود إلى ضيق العالم.

وفي ليالي الحرب، كانت هي الجهة التي لا تشبه الموت،

وكان حديثنا القصير،

هدنة صامتة لا يعلنها أحد

———

كانت غيداء تجلس قبالتي، كأنها على وشك أن تخلع قناعها الأخير.

أشعلت سيكارة أخرى، وراحت تحدّق في لا شيء،

ثم قالت بهدوء لا يشبه سرد المآسي المعتاد:

– "كنا عايشين بمدينة صغيرة... ضاعت مننا بكل الطرق الممكنة.

أول شي القصف... بعدين الحصار... بعدين النزوح.

نحن خمسة أخوات، وأمي، وأبوي...

أبوي مات بالسرطان، مش بالحرب.

بس الحرب خلّته ينسحب أسرع."

صمتت قليلًا.

"ما كان معنا شي.

بس معنا بعض.

بس حتى البعض... صار عبء."

كانت الكلمات تخرج منها ببطء، كأنها تستعيدها من قاعٍ بعيد.

لم أُقاطعها.

كنت أعرف أن هذه اللحظة لا تحدث كل يوم.

لحظة أن تفتح امرأة مثل غيداء قلبها... أمام رجل مثلّي.

كنت أعرف — تمامًا — أنني لا أصلح لأن أكون سندًا لها.

هي كانت تبحث عن أرض، عن حائط، عن كتف يُسندها في الليل.

وأنا... غريق،

أبحث عن قشة،

عن أيّ يد تُبقيني طافيًا فوق موج الحياة، لا أكثر.

لكن شيئًا في حديثها جعلني أراها تتسلل إلى روايتي،

كأنها كانت تُعيد كتابة الفصل القادم نيابة عني.

في روايتي، كانت البطلة تُدعى سماء.

وفي ذلك الفصل، كنت قد جعلتها تنجو من مدينة منهارة،

بصحبة أربع شقيقات، وأم منهكة، وأب مريض لم يكمل الرحلة.

أدركت أنني لم أخلقها...

بل فقط توقّعتها.

كانت غيداء تتحدث،

وكانت الكلمات تكتُب نفسها على الورق داخل رأسي،

كما لو أن الواقع قرر أن يمنح الرواية قلبًا نابضًا من لحمٍ وندبة.

قالت أخيرًا:

– "أنا ما عم دور على حب.

ما عندي رفاهية إني حب.

أنا بس بدي أحس إني بأمان."

ثم نظرت إليّ، نظرة ثقيلة، صريحة، لا تحتمل التأويل:

– "وانت... ما بتشبه الأمان."

أخفضتُ رأسي.

لم أغضب.

لأنها كانت على حق.

أنا كنت مأخوذًا بها كفكرة، كصورة، كحالة شعرية.

لكنها كانت إنسانة... تبحث عن حياة، لا عن استعارة.

وفي تلك الليلة، عدت إلى دفتري.

أمسكت القلم،

وكتبت الجملة التالية:

"في بعض الأحيان، تكون المرأة نجاة مؤجلة لرجلٍ لا يستحق النجاة ...وفي أحيان أخرى، تكون الرواية مأوى لمن لا تقدر عليه الحياة".

كتبتها كما لو أنني أعتذر، منها،

ومن نفسي،

ومن كل امرأة ظنّها رجل كاتبًا بأنها فصلٌ قابل للكتابة فقط

———

كانت غيداء ملجأه اليومي.

كان صباحه يبدأ منها، ومساءه ينتهي عندها،

كأنها الصلاة الوحيدة التي ما زال يقيمها دون انقطاع،

حتى وهو لا يؤمن بشيء.

لم يكن يخطط لذلك،

لكنّه وجد نفسه يغرق في تفاصيلها —

ضحكتها النصف مكتومة،

عقدة حاجبها عندما تفكر،

طريقة نطقها لكلمة "منيحة" وكأنها تعني بها كل شيء إلا أنها بخير.

صار وقتُه كلّه لها، دون أن ينتبه أن الوقت نفسه بدأ يتآكل.

كان يظن أنه يحتمي بها،

لكنه، دون أن يدري، صار يتسلّل إلى قلبها كمرض مزمن،

كشيء لا يمكنها اقتلاعه دون أن تفقد جزءًا من نفسها.

هي التي كانت تبحث عن الأمان...

عن ظلّ لا يخيفها، عن حائط لا ينهار،

عن يدٍ لا تكتبها، بل تمسك بها وتقول: "أنا هنا."

لكنّه، دون أن يقصد،

صار سرطانها.

ليس السرطان الذي يُميت،

بل ذاك الذي يعيش معها، ينام في صدرها،

ويقول لها كل صباح: "لن أرحل."

كان حبّه يشبه الضوء في نفقٍ بلا نهاية.

دافئ، نعم.

لكن أيضًا، منهِك.

هي لم تكن تريده أن يغرق فيها،

بل أن يبقى على الشاطئ،

ينتظرها حين تخرج من محيطها المثقل.

لكنّه لم ينتظر.

قفز.

وفي كل مرة كانت تحاول استعادة توازنها،

كانت تجد ظله على كتفها،

ورائحته في سترتها،

وصوته في دفترها،

وكلماته في الأماكن التي لم يكن فيها.

قالت له ذات مساء، بعد صمت طويل:

– "أنا عم أختنق فيك، رغم إني بحبك."

لم يعرف ماذا يقول.

كأن الكلمات خانته،

كما خانت كل من قبله.

قالت بعدها:

– "كنت أظنك وطن... طلعت حرب."

صمته كان خيانته الأخيرة.

وفي تلك الليلة، لم يكتب.

ولم يذهب إلى المقهى.

ولم ينتظرها.

جلس وحده، يفكر:

كيف يتحول الحب إلى حمل؟

والقرب إلى مرض؟

والأمان إلى فخّ؟

ثم كتب في دفتره جملة قصيرة، مؤلمة، ومجردة:

"كنتَ ملجأها ...ثم صرت مرضها".

ثم أغلق الدفتر.

وبقي الليل مفتوحًا عليه

———

ما بعد غيداء لم يكن بعدًا بالمعنى الزمني.

كان امتدادًا داخليًا لفجوة لم تُردم أبدًا.

كنت أستيقظ كل يوم كمن خرج من بيت احترق،

وما زالت رائحة الدخان تلاصق جلده.

لم نودّع بعضنا كما يفعل الذين يحبون بسلام.

لم نقل: "انتهى."

لم نقل شيئًا.

هي انسحبت ببطء،

وأنا بقيت أكتب —

كأنني أمارس طقوس الحداد على شيء لم يُدفن.

في البداية، ظننت أنني سأشفى منها كما نشفى من الحنين المؤقت.

لكنها بقيت...

في طريقة جلوسي، في شكل حزني،

وفي كل جملة أكتبها ثم أمسحها خوفًا من أن تكون عنها.

وكنت أعود إلى روايتي...

إلى "نديم".

كنت أُعدّ له كل فخ، وأزرع له كل هاوية،

وأكتب نهايته ببطء، كما يخطّ القاتل اسم ضحيته على الحائط.

كنت أقول لنفسي إنني أكرهه لأنه يشبه زياد.

زياد... الذي خان صديقه،

الذي استولى على امرأة لم تكن له،

الذي خان الذاكرة، والرفقة، والثقة.

لكن الحقيقة التي لم أعترف بها — حتى لنفسي —

هي أنني كنت زياد.

كنتُ زياد في لحظة ضعفي،

عندما خانتني إرادتي أمام حب غيداء،

عندما أمسكت بيدها وأنا أعرف أنني لا أستطيع أن أكون لها،

عندما جعلتها تفتح قلبها، ثم تركته مشرّعًا في العاصفة.

أنا لم أكن أكتب لأعاقب زياد.

كنت أكتب لأجلد نفسي،

دون أن أُمسك السوط.

كنت أعاقبه لأنه خان صديقه،

لأنني أنا... خنت غيداء.

وما كنت أجرؤ أن أقول: "خنتها"،

فقلت بدلًا من ذلك:

"كان زياد خائنًا."

وفي كل مرة أقتل فيها نديمًا على الورق،

كنت أحاول أن أنقذ رجلًا داخلي مات بصمت.

لكن الحقيقة الأشد مرارة،

هي أنني لم أعد أستطيع أن أكتبها — غيداء.

فقد أصبحت شخصًا لا يليق بالكتابة عنها،

ولا بالوقوف أمام ذاكرتها.

ولم يبقَ لي منها إلا ما كتبته ذات ليلة، ونسيت أن أُمسحه:

"بعض النساء لا يحتجن نهاية...

لأن حضورهنّ كان هو الخاتمة.

———

ومنذ تلك الليلة،

لم أعد أبحث عن غيداء في الشوارع،

ولا أنتظرها في المقهى.

لم أعد أكتبها،

لكنها بقيت تكتبني — بصمت،

تسكن فراغ الجملة،

وصدى الحروف التي لا تُقال.

لم نلتقِ مجددًا.

ولم أسأل عنها.

فبعض الحكايات لا تنتهي بحدث،

بل بغياب،

لا يُقال فيه "وداعًا"،

ولا يُقال فيه "عدنا".

و"نديم"، الذي صنعته لأنتقم من خيانة رجل،

صار تمثالي الخفي...

أطيل النظر إليه

كي لا أُجبر نفسي على النظر إلى مرآتي.

أغلقت الرواية.

لا لأنها انتهت،

بل لأنها لم تعد تحتمل المزيد.

ورميت القلم جانبًا،

كمن ترك الحرب دون أن يعلن ذلك.

لم أعد أكتب كما كنت.

صرت أترك مساحات بيضاء متعمّدة،

أماكن ينام فيها الألم،

ولا يُوقظه أحد.

لأن بعض الأشياء لا تُغفر.

ولا تُكتب.

بل تبقى...

تُرافقنا

مثل ظلّ ثقيل،

أو مثل امرأة اسمها غيداء،

مرت من هنا

ثم غابت

على وزن الصمت

جاء هاتف غيداء بعد القطيعة غريبًا.

لم يكن في صوته ارتباك، ولا دفء، بل نبرة من يعرف تمامًا ما يريد، ومن قرّر سلفًا ألا يُبرر.

قالت ببساطة:

– "أريد أن أراك."

ورددتُ، دون تردد:

– "أنا جاهز."

غمرتني سعادة غريبة.

ليست فرحًا... بل ما يشبه نشوة الناجين من تحت الأنقاض،

فرحٌ مشوب بالخوف، بالأسئلة، وبظلال لا اسم لها.

ذهبنا إلى مطعمنا القديم، هناك في الجبل.

ذلك المكان الذي لطالما لجأنا إليه كأننا نهرب من مدينة لا تفهمنا.

جلستُ أمامها، تشرب العرق، كعادتها، كما لو أنه مائها الخاص،

تحاول أن تفتح لي الموسيقى التي أحب...

وتضحك حين أقول لها: "ما رح تعجبك".

وفي الطريق عودتنا،

لم تتحدث كثيرًا،

لكنها عانقتني عند باب بيتها،

عناقًا لم يشبه كل ما قبله.

كان عناقًا طويلاً، خافتًا، مُرتبكًا،

كأنها تكتبني للمرة الأخيرة بلمسة.

تجمدت لحظة في ذراعيها.

شيء ما داخلي ارتجف،

كأنني شعرتُ للمرة الأولى أن هذا الحضور...

هو تمهيد لغياب طويل.

لم أنم تلك الليلة.

القلق كان واضحًا، والصمت كان أعلى من كل الأفكار.

وفي الصباح، قررت أن أخرج، لا أعرف لماذا ولا إلى أين،

حتى وصلت مركز البريد في طرطوس، تلك المدينة التي أحبها رغم كل شيء.

وهناك...

رأيت سيارتها.

مقفلة، صامتة، واقفة كأنها تنتظر أحدًا غيري.

اقتربت منها كمن يلمس شيء مريب في نفسه.

كل شيء فيها كان عاديًا...

لكن قلبي لم يكن كذلك.

رفعت عيني...

فرأيت شركة سفريات.

وتلك القشعريرة التي لا تخطئني... عادت.

دخلت.

تقدمت إلى موظفة أعرفها منذ زمن السفر مع غيداء،

سألتها بصوت حاولت أن أجعله عاديًا:

– "غيداء... إجت لهون؟"

قالت وهي ترفع رأسها وتبتسم كأنها تعرف كل شيء:

– "إيه، مع أختها. حجزوا لدمشق... قبل شوي طلعوا."

لم أُفكر.

كأن شيئًا قدريًا أمسك بيدي وسحبني.

حجزت في أقرب رحلة، وجلست في المقعد أراقب الطريق لا المنظر.

كنت أرسل لها الرسائل،

لا ترد.

كنت أطلبها،

ترفض.

وعندما وصلت...

كتبت لها:

– "أنا هنا."

فردّت:

– "بتعرف وين تلاقيني."

وعرفت.

باب توما.

ذلك المقهى الذي كنا نجلس فيه كما لو أننا نحتمي من كل ما كنا نخافه،

وجدتها هناك، هي وأختها، والحقائب بجانبهما.

لم يكن في المشهد أي دراما، فقط هدوء...

هادئ لدرجة القسوة.

قلتُ بهدوء:

– "مسافرة؟"

قالت:

– "نعم."

أوصلتها إلى المطار،

كل خطوة كانت تسرق شيئًا مني،

وكل لحظة كانت تضغط على قلبي كأنها تقطّعه بسكين غير حادة.

دموعي لم تسعفني، ولم أخفها.

وهي أيضًا...

بكت دون صوت.

وعند الباب الأخير،

نظرت إليّ كما لم تفعل من قبل،

وقالت بصوت خافت لكن قاطع:

– "أرجوك... لا تلحقني.

اتركني أكمل حياتي."

ورحلت.

لم أوقفها.

لم أركض خلفها.

لم أكتب.

وقفت هناك، أمام الزجاج،

أرى ظهرها يبتعد،

وصوتي الداخلي يهمس:

"كل الحكايات تنتهي...

لكن بعضها يظل مفتوحًا،

على وزن الفقد،

على وزن الصمت.

كان قد اعتاد دائمًا أن يلحق بها.

في كل مرة كانت تختفي، كان يعرف أين يجدها.

لم يكن الأمر بحثًا بقدر ما كان إحساسًا.

علاقتهما كانت أشبه بلعبة القط والفأر،

ليست مطاردة عدائية،

بل لعبة خفية لا أحد فيها يريد أن يُمسك بالآخر تمامًا.

كان كل منهما يعرف الطريق، ويعرف المفرّ، ويعرف متى ينكسر دون أن يُهزم.

كانت بينهما حكايات كثيرة...

حكايات لا يمكن حصرها، ولا حتى كتابتها.

كل محاولة لسردها كانت تبدو خيانة للحقيقة،

فبعض التفاصيل لا يُقال، وبعض الحب لا يُكتب.

عرف لاحقًا أنها غادرت إلى سلطنة عمان.

ذهبت إلى أختها التي تعمل هناك،

وكانت مغادرتها في أواخر نوفمبر.

لم يتردد.

الخبر وحده أخذ أيامًا قليلة ليتحول إلى قرار.

ذهب إلى مكتب الطيران،

وهناك، كانت "عواطف" — الموظفة التي تعرفه وتعرف الحكاية — تبتسم وتقول:

– "لوين بدك أحجزلك؟ سلطنة عمان؟"

كان الجميع يعرف...

كل من رآهم مرة أو مرتين،

كل من لمح نظرته وهو يحدّق فيها،

كل من سمع صوته حين ينطق اسمها...

عرف القصة.

لكن الكبرياء الذي ظلّ صامتًا طوال هذه السنوات،

تكلم فجأة.

قال:

– "لا... دبي."

كأن الكلمة خرجت لتقول:

"لن أركض وراءها، لكنني سأبقى قريبًا."

كانت تلك طريقته الوحيدة ليبقى على مسافة ما بين العناد والحنين.

قال لنفسه:

– "أصل إلى دبي، ومن هناك... أقرّر."

أراد أن يبدو كما لو أنه يتحكم بالأمر،

لكن الحقيقة كانت واضحة:

لم يكن يريد أن يُقال إنه لحق بها...

لكنه لم يستطع إلا أن يفعل.

———

في الطائرة، جلس بجانب النافذة.

أخذ يتذكر كيف كانا يخططان للسفر سويًا ذات مرة،

كيف قالت له ضاحكة:

– "لما نسافر ما بدّي نرجع... بدنا نضيع بشي بلد ونختفي."

فقال لها حينها:

– "ما بنضيع... أنا بضل ألاقيك، حتى لو ضاع العالم كله."

ابتسم...

ثم أغمض عينيه، وكأن الذاكرة أصبحت أثقل من الرحلة.

كان دبي مجرد محطة.

لم يكن يعرف كيف سيدخل إلى عمان،

ولا كيف سيراها هناك،

ولا حتى إن كانت ستسمح له بالوصول.

لكنه لم يعد يطيق أن يكون في بلدٍ وهي في آخر.

كان يريد فقط أن يشعر بقربها.

ولو لم تره.

ولو لم تكلمه.

ولو لم تفتح له الباب.

كان يريد فقط أن يعرف...

أنها ما زالت في هذا العالم.

أنها لم تغلق آخر الصفحات.

———

في دبي، نزل في فندق عادي،

أشعل النور، جلس على الكرسي،

وحدّق في نفسه في مرآة الغرفة.

كان يبدو كأنه خسر للتوّ معركة لم يخضها.

فتح هاتفه.

بحث عن رقمها.

لم يتصل.

لكنه كتب رسالة:

"أنا قريب. مش لأستعيدك... بس حتى ما أحس إنك صرتي بعيدة جدًا."

ثم حذفها.

نام تلك الليلة دون نوم.

وأفاق وهو لا يعرف بعد...

هل سيكمل الطريق إلى عمان،

أم سيعود إلى وطنه خالي اليدين

لكن ممتلئًا بالحكاية

*****

لم يكن يعلم أنه، حين غادر،

كان يغادر للمرة الأخيرة.

لم يكن يعرف أن البلد الذي خرج منه،

لن يعود إليه كما كان،

ولا هو سيبقى كما كان.

بعد يومين من وصوله إلى دبي،

اندلعت حرب جديدة في سوريا.

موجات من الخوف اجتاحت المدن.

الناس عادوا إلى لغة الطوابير، والملاجئ، والانتظار الخائف.

وكان هو هناك، في غرفة فندق،

ينظر من شباك مرتفع...

يرى الأرض التي ولد منها تحترق،

ويشعر كأن الحريق وصل إلى صدره.

لكنه لم يكن وحده من يحترق.

كان أبطال روايته يشنون عليه حربًا من نوع آخر.

نديم، بالتحديد.

لم يعد مجرد شخصية خيالية.

صار صوتًا داخليًا يقتحم كل فكرة،

كل ضعف، كل محاولة للنسيان.

قال له نديم ذات ليلة، بصوت داخلي خافت:

– "الناس عم تموت، وإنت هون... بتكتب؟"

– "أنا ما هربت... بس تعبت."

– "أنت ما بتكتب رواية، إنت عم تهرب منها."

– "أنا عم أحاول أعيش."

– "وأنا عم أحاول أذكّرك مين أنت."

كان الحوار داخليًا،

لكنه كان عنيفًا كحرب الشوارع.

وفي قمة هذا الصراع،

جاءها اتصال غيداء.

فيديو ليلي.

وجهها في الظلام،

وعيناها لا تخفيان أنها عرفت.

قالت:

– "شو بتعمل بدبي؟"

رددت ببساطة، كما لو أنني ما زلت أملك الحق في الإجابة:

– "عم بستناك."

فقالت، بلا تردد، بلا بكاء، بلا إدانة:

– "لا تستناني. أنا بلشت حياة جديدة... إنت روح."

ثم ساد الصمت.

ذاك الصمت الذي لا يحتاج إلى تفسير.

هي من برج العقرب.

وأنا أيضًا.

نحن لا نُسامح بسهولة.

ولا نعود بعد النهاية.

كنا صعبين، مُركّبين، ممتلئين بالتردد،

لكننا حين نحسم،

نحسم إلى الأبد.

أغلقت الهاتف.

ومعي... أغلق شيء ما في داخلي.

وفي اليوم التالي،

بدون خريطة واضحة،

غيرت وجهتي إلى قطر.

إخوتي هناك.

ثم بعدها، إلى أوروبا.

الهجرة لم تكن حلمًا.

كانت موجةٌ أخيرة لنجاةٍ مؤقتة.

لم أعد أبحث عن غيداء،

ولا عن نديم،

ولا عن رواية تنقذني.

كنت أبحث فقط عن مساحة جديدة...

أكتب فيها نهاية لا تنكسر كلما قرأتها.

لكن...

لم تنتهِ القصة هنا.

الوجوه القديمة، وإن غابت،

تعود في هيئة أخرى:

امرأة في عربة قطار تبتسم بطريقة غيداء،

شاب يقرأ في مقهى وعينه تشبه نديم،

مدينة لا تعرفني،

لكني أرى فيها تفاصيل مدن غادرتها.

والأهم من ذلك...

أنني، حين فتحت دفتري ذات ليلة أوروبية باردة،

وجدت الجملة التي كتبتها قبل سنوات،

لكنني لم أفهمها إلا الآن:

"بعض الحكايات لا تحتاج خاتمة... لأنها تحيا لترويها، لا لتنتهي.

ماجد ملحم

نورشوبينغ – السويد

2025/7/13

حقوق النشر والتصميم محفوظة

2025م